٨

أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر

بقلم الدكتور نسيم مقـار

وجه الأهمية فى دراسة تاريخ الهوارة :

لقد نزحت الى مصر بعد ظهور الاسلام قبائل عربية كثيرة ، بيد أنه لم يقدر لقبيلة منها ، وبخاصة القبائل التى نزلت بصعيد مصر ، أن تحظى بالشهرة والمكانة التى حظيت بها قبيلة الهوارة فى الصعيد بل لم يقدر لواحدة منها أن تبسط نفوذها وسلطانها على مناطق واسعة من الصعيد بمثل ما فعلت هذه القبيلة .

فقد حكم شيخ العرب همام زعيم قبيلة الهوارة الصعيد جنوبى أسيوط حتى اسنا فترة من الزمن ، بل لقد امتد نفوذه الى أبعد من ذلك حتى بلاد النوبة (١) ، وأقام دولة فى صعيد مصر عرفت فى التاريخ باسم دولة شيخ العرب همام استمرت مالا يقل عن أربع سنوات (١٧٦٥ — ١٧٦٩ م) .

والباحث فى تاريخ الهوارة يجد أن نفوذهم فى الصعيد قد استند الى دعامتين رئيسيتين : احداهما تتمثل فى نشاطهم البارز فى زراعة الأرض ، ومثابرتهم — دون سائر القبائل الأخرى — فى استصلاح الأراضى الصحراوية ، التى أمكنهم استغلال المساحات الكبيرة منها فى الانتاج الزراعى ، والدعامة الأخرى تتمثل فى شهرتهم الواسعة فى تربية الخيول ، وامتلاك الكثير منها ، وقد كانت عونا لهم فى صراعهم مع المماليك والحكومة المركزية من أجل السلطة والنفوذ .

والهوارة قبل أن يصلوا الى حكم الصعيد دخلوا فى صراع مع أمراء المماليك ونازعوهم السلطة ، وقاموا بالثورات على الحكومة المركزية فى القاهرة ، واشتبكوا فى حروب معها ، حتى اذا ما انفرد على بك الكبير بحكم مصر شن حربا شعواء عليهم وانتهت بزوا لسلطتهم ، وان لم تقض كلية على نفوذهم ، الذى ظل متغلغلا فى مراكز وقرى الصعيد ، الى أن تولى محمد على حكم مصر ، فسعى الى القضاء على نفوذهم اذ امعن بالسيف والاعدام فيهم حتى قتل العديد منهم ، كما دمر قراهم واستولى على ممتلكاتهم ، فارتاح من منافستهم له على السلطة ومناواتهم لحكومته على نحو ما فعل مع المماليك .

وهكذا كان لهوارة الصعيد دور بارز على مسرح الأحداث فى مصر فى القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر فى الصراع من أجل السلطة والنفوذ .

وعلى الرغم من أهمية هذا الدور التاريخى لهوارة الصعيد ، وأثرهم فى الحياة السياسية والاقتصادية فى البلاد ، فان المؤرخين المحدثين يقصرون عن معالجته ، أو حتى الاشارة اليه حين يتعرضون لحكم المماليك أو لحكم محمد على فى صراع كل منهما ضد القوى المنافسة له فى حكم البلاد — مع أن المؤرخين المعاصرين من أمثال الشيخ عبد الرحمن الجبرتى قد عرضوا له ، اذ تناول هذا المؤرخ المصرى الجليل فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » قصة الصراع بين الهوارة والمماليك ، وأفاض بصفة خاصة فى الحديث عن الحرب الأخيرة التى دارت بين على بك الكبير وشيخ العرب همام زعيم الهوارة فى الصعيد ، كما عرض لهذا الدور التاريخى لقبيلة الهوارة بعض الرحالة الموثوق بهم مثل الرحالة بوركهارد Burchardt الذى ضمنه بعض ملاحق كتابه Travels in nubia (رحلات فى النوبة) وقد زار هذا الرحالة السويسرى مصر والسودان فى اوائل القرن التاسع عشر ، واتيحت له فرصة التعرف على بعض زعماء الهوارة والاتصال بهم ، وامكنه أن يلم بجوانب هامة من تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظم معيشتهم فى المناطق التى كانوا قد بسطوا نفوذهم عليها ، وبخاصة فى مراكز وقرى قنا ، مما يعد صفحة هامة مطوية فى تاريخهم .

واذا كان قد اتيح لبعض الأساتذة المصريين فرصة ترجمة كتاب رحلة « بوركهارد » السالف الذكر الى اللغة العربية ، مما يعد فى حد ذاته مجهودا علميا يستحق التقدير ، اذ يخدم جانبا هاما من الدراسات الأفريقية بالمكتبة العربية ، الا ان يد الترجمة لم تمتد الى ملاحق هذا الكتاب رغم اهميتها ، وهى التى تناولت فيما تناولته من الموضوعات السياسية والاجتماعية والتاريخية الهامة موضوع بسط الهوارة نفوذهم على الصعيد وموقف محمد على العدائى منهم .

وربما كان هذا القصور وغيره من الدوافع الرئيسية التى دفعتنى للتصدى للكتابة فى هذا الموضوع ، مما قد يلقى الضوء على صفحة هامة مطوية من تاريخنا القومى ، باعتبار أن الهوارة قبيلة من العرب نزحت الى مصر حيث استوطنت مناطق واسعة من الصعيد امتدت كما اسلفنا ، جنوبى اسيوط حتى اسنا ، واستقرت بها وارتبطت بأرضها ارتباطا وثيقا ، بعد أن أفلحوها بكدهم وكفاحهم ومدوا يد العمران اليها ، وتصدوا للحكام من المماليك والأتراك ونازعوهم السلطة عندما سعى هؤلاء الحكام للقضاء على سلطانهم ونفوذهم الذى اقاموه فى مناطق الصعيد وقد تأصلوا فيها وارتبط تاريخهم ومستقبلهم بها .

وسأتناول فى هذا البحث تاريخ نزوح الهوارة الى مصر ، وازدياد نفوذهم فى الصعيد ، وقيام دولة شيخ العرب همام زعيمهم ، ونظام حكم الهوارة فى الصعيد ، وما يدور من حديث حول جمهورية همام واخيرا زوال شيخ العرب همام على يد على بك الكبير ، ثم موقف محمد على بعد توليه حكم مصر من الهوارة فى الصعيد ، وما كان من أمر تخلصه من معارضتهم لسلطانه بالقضاء على زعمائهم وتدمير قراهم على يد ابنه ابراهيم باشا .

تاريخ نزوح قبيلة الهوارة الى مصر :

يقول مكمائيل Macmichael (٢) البريطانى الذى عنى بدراسة تاريخ القبائل العربية فى مصر والسودان « ان قبيلة هوارة نزحت من بلاد المغرب الى مصر حيث استقرت فى مديرية البحيرة ثم اضطرت فى القرن الرابع عشر الميلادى تحت ضغط قبائل زنارة وحلفائهم من عرب

هذه المديرية الى الهجرة جنوبا ، فاستقر الكثير منهم فى مديريات الصعيد المختلفة ، وهناك اخذ يعلو شأنهم عندما استقروا في جرجا وما حولها عام ١٣٨٢ زمن حكم الأمير برقوق أول امراء المماليك البرجية ، اذ بفضل مهارتهم ومثابرتهم فى الزراعة امكن استخلاص الأراضى من براثن الصحراء، بعد أن كانت رمال الصحراء قد طغت عليها ، ونجح الهوارة دون سائر القبائل الأخرى التى هاجرت الى مصر من بلاد المغرب فى توطيد اقدامهم فى وادى النيل (٣) . ويمضى الزمن زاد عددهم وقوى بأسهم حتى انتشروا فى معظم الوجه القبلى ، وبسطوا نفوذهم فى مراكز قنا .

ازدياد نفوذ الهوارة وقيام دولة شيخ العرب همام :

على أن نفوذ الهوارة فيما يبدو قد امتد الى الجنوب من قنا حتى اسوان اذ يضيف مكمايكل Macmichael الى ذلك « انه قرب نهاية القرن الرابع عشر هاجم الهوارة بالاشتراك مع أولاد كنز مدينة أسوان ، وبعد ذلك ببضع سنوات انقلبوا على حلفائهم ، واستولوا على المدينة بأنفسهم بعد ان اعملوا السيف فى اهلها » (٤) .

أما الرحالة « بوركهارد » Burchardt الذى زار وادى النيل فى أوائل القرن التاسع عشر ، فبعد أن وصف انتشار الهوارة فى وقت زيارته فى القرى الممتدة على الضفة القريبة للنيل من اسيوط شمالا الى فرشوط جنوبا ، وبالقرب من قنا على الشاطىء الشرقى ، وتمتعهم بالقوة والثروة ، فانه يروى لنا بالتفصيل كيف أن اسرة زعيمهم همام أبو يوسف (فى القرن الثامن عشر) قد ادعت لنفسها حكم مصر العليا (الصعيد) جنوب أسيوط ، وان المماليك فى ذلك الوقت قد اضطروا الى الاذعان والاتفاق معهم على ترك هذه البلاد تحت نفوذهم « نفوذ الهوارة » (٥) .

ثم يضيف « بوركهارد » الى ذلك « أن همام المذكور قد امكنه أن يبسط سلطانه شمال النوبة التى زارها مرات عديدة وتوغل جنوبا حتى المحس » (٦) .

نظام حكم الهوارة فى الصعيد :

هكذا نجح الهوارة بزعامة همام أبو يوسف فى اقامة دولة لهم فى الصعيد عرفت باسم دولة شيخ العرب همام . وبعض الكتاب المجتهدين يرى أن نظام الدولة التى أقامها همام فى الصعيد كان جمهوريا، وأن همام أول من أقام النظام الجمهورى فى مصر ، وان مصر بذلك تكون قد عرفت تجربة النظام الجمهورى على يد همام قبل الثورة الفرنسية نفسها بسنوات ، ويستدل على ذلك بأقوال بعض المؤرخين والكتاب الذين عاصروا هذه الحقبة من الزمن التى قامت فيها هذه الدولة فى القرن الثامن عشر (١٧٦٥ — ١٧٦٩) .

ان الدكتور لويس عرض فى كتابه « المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث (البحث الثانى) الفكر السياسى والاجتماعى » يؤكد هذا الرأى مستندا الى اقوال بعض المعاصرين أمثال رفاعة الطهطاوى فى كتابه « تخليص الابريز » وما ورد فى مذكرات المعلم (الجنرل يعقوب) فى مشروع استقلال مصر الذى قدمه عام ١٨٠١ م الى الدول الأوربية مشيرا فيه الى حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد كمثل يمكن أن تكون عليه حكومة مصر عند حصولها على الاستقلال .

فقد ذكر رفاعة الطهطاوى فى وصفه لحالة الرأى العام فى فرنسا عام ١٨٣٠ بأن ثورة لويس فيليب ملك الفرنسيين على شارل العاشر قوله « اعلم أن هذه الطائفة (يقصد الفرنسيين) متفرقة فى الرأى فرقتين أصليتين وهما الملكية والحرية ، والمراد بالملكية أتباع الملك القائلين بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء والآخرون يميلون الى الحرية بمعنى أنهم يقولون لا ينبغى النظر الا فى القوانين فقط والملك انما هو منفذ للاحكام طبق ما فى القوانين فكأنه عبارة عن آلة ، ولا شك أن الرأيين متباينان .. ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة الى ملك أصلا.

« ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل منوا من تختاره منها للحكم ، وهذا هو مثل مصر فى زمن حكم الهماوية فكانت أمارة الصعيد جمهورية التزامية » (٧) .

ويعلق الدكتور لويس عوض على ذلك بأن هذا الـــكلام خطير لأن معناه أن مصر قـــد عرفت تجربة النظام الجمهوري قبل الثورة الفرنسية نفسها بسنوات قليلة . واهمية هذا الـــكلام من انه صادر من مفكر كبير مثل رفاعه الطهطاوى العـــارف ادق معرفة بالنظم والمذاهب السياسية ، وهو لا يمكن ان يطلق القول على النظـــام الجمهورى فى فرنسا ويشبهه بالنظـــام الجمهورى فى مصر الا اذا كانت معلوماته عن ثورة همـــام تؤكد ذلك (٨) .

ويفسر الدكتور لويس مفهوم الجمهورية عند رفاعه فى جمهورية شيخ العرب همام « بأن اركان الفكرة الجمهورية عند رفاعه الطهطاوى كما حددها هى « أن يكون الحكم بالكلية للرعية » اى أن الأمة مصـــدر السلطات كما نقول نحن فى الدساتير الحديثة وانه « لا حاجة للملك أصلا » اى أن يكون للدولة رئيس وجهاز حكم غير متوارث وانما نابع من القاعدة الشعبية وان الأمة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا التوكيل سواء تم عن طريق الانتخاب أو عن طريق الاستفتاء أو عن طريق البيعة أو عن طريق آخر هو المقابل لفكرة التوكيل أو التفويض » (٩) .

اما بالنسبة لمـــا ورد عن جمهورية همام فى مشروع المعلم يعقوب (الجنرال يعقوب) الخاص باستقلال مصر الذى قدمه عام ١٨٠١ الى الدول الأوربية كنموذج لنظام الحكم الذى يقترح قيـــامه فى مصر المستقلة ، ففى القسم السابع من مذكراته (مذكرات المعلم يعقوب) التى قدمها سكرتيره الفارس لاسكارس الى الكابتن جوزيف ادموندز ، قومندان السفينة بالاس لرفعها الى مجلس الوزراء البريطانى عن طريق وزير البحرية البريطانية، يذكر المعلم يعقوب « واذا ما اجازت الحكومات الأوربيـــة اســـتقلال مصر فالسؤال هو كيف يحكم المصريون انفسهم ، وكيف يدافعون عن استقلالهم . . فلتكن الحكومة الجديدة عادلة وقاسية وقومية كحكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت لك قصتها فهى بالتأكيد سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب » .

ومهما يكن من أمر نظام الدولة التى اقامها شـــيخ العرب همـــام فى الصعيد ، فان الذى يعنينا فى هذا المقام هو الوقوف على نظام حكم الهوارة

لبلاد الصعيد التي خضعت لنفوذهم ، وهو ما عني بابرازه الرحالة بوركهارد Burchardt الذى جاء الى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ، وزار مناطق الهوارة فى الصعيد واختلط ببعض زعمائهم ، وتعرف على عاداتهم وتقاليدهم وجوانب هامة من تاريخهم ونظم حكمهم سجلها فى ملاحق كتاب رحلته .

ان الرحالة بوركهارد Burchardt يصف نظام حكم الهوارة فى الصعيد بالصرامة والتعالى ، ويذكر أنهم كانوا يفرضون ضريبة على الأرض وكذلك كانت تفرض المكوس على التجارة وبخاصة فى قنا وفرشوط وجرجا ، ويضيف « بوركهارد » الى ذلك أن كثيرا من اقارب همام كانوا يحكمون فى مراكزهم بالقسوة وان القبط كانوا أكثر تأثرا بقسوتهم ، فقد تعرضوا — باستثناء من كان يعمل منهم لدى الهوارة ككتبة أو صيارفة — لأعمال الاغتصاب وبخاصة من كان يعمل منهم فى الزراعة أو صناعة النسيج ... وكان الفقراء منهم يعملون كرقيق للارض مقابل تمتعهم بالحماية أو امدادهم بالقوت والكساء واذا حدث أن أصاب أحدهم الثراء فانه يعفى من الأعمال الشاقة ويحمى من استبداد أى شيخ آخر ، ولكن يضطر الى تقديم الهدايا لسيده من وقت لآخر فى كل مناسبة » (١٠)

ويحدثنا « بوركهارد » عن نظام فرض الضريبة على الأرض الزراعية « بأن شيوخ القرى كانوا يتسلمون ضريبة الأرض من الفلاحين ، وفى كل جزء من المناطق التى خضعت لنفوذ الهوارة كانت الضريبة على الأرض لا تفرض على الفدان كما هو الحال الآن ، وانما كل مركز يدفع المبلغ الاجمالى للضريبة المقررة عليه وشيوخ القرى كان لهم الحرية فى توزيعها على الفلاحين حسب هواهم ، وعن هذا الطريق جمعوا ثروة كبيرة » (١١) .

أما مناطق الصعيد التى خضعت لنفوذ الهوارة وطبق عليها هذا النظام الضريبى فان الرحالة « بوركهارد » يؤكد أن قبيلة الهوارة كانت تحتل جميع القرى على الشاطىء الغربى للنيل من قرب أسيوط شمالا حتى فرشوط جنوبا ، وبالقرب من قنا على الشاطىء الشرطىء الشرقى للنيل وان اكثر الفلاحين ثراء فى هذه القرى كانوا يتبعون هذه القبيلة وحتى تولى محمد على حكم مصر كانوا أقوياء جدا ، وفرع أولاد يحيى الذين استقروا على

الضفاف الشرقية للنيل من بهجوره وحتى قنا وتشمل القرى الكبيرة للسلامية والقصير والصياد وفاو والشناورية ، حازوا على شـــهرة كبيرة بأعمـــالهم الثورية وقيامهم بالثورات (١٢) .

واخيرا يشرح الرحالة « بوركهارد » الدعائم التى ارتكز عليهـــا حكم الهوارة فى الصعيد بقوله « ان اقليم الهوارة اشتهر بأنه اغنى بقاع مصر بالخيول وكل فلاح كان يمتلك حصانا ، ومن ثم فان كتيبة كبيرة من الفرسان كان يمكن جمعها فى اللحظة الحاسمة . وفى الوقت نفسه كانت أراضيهم تزرع جيدا ومن أكثر البقاع المصرية ازدحاما بالسكان . ومن تل بمدينـــة طهطا الصغيرة استطعت أن احصى حسب امتداد بصرى ٣٥ قرية » (١٣) .

ولقد امتدح الرحالة « بوركهارد » طبيعـــة الـــكرم التى اشتهر بها شيوخ الهوارة وقد بات ليلة عند واحد منهم بقرية مقابل ابيدوس . ويذكر انه وجد فى بيت هذا الشيخ الهوارى فى تلك الليلة أكثر من ستين شخصا يتناولون طعام العشاء فى فناء البيت (١٤) .

اما عن علاقات الهوارة بجيرانهم من البدو والقبائل الأخرى المجـــاورة فان الرحالة « بوركهارد » يذكر أن حكم الصعيد لم يخلص للهمامية تماما ، فقد كانوا يتعرضون للهجمات المتواصلة من بدو ليبيـــا ، وكذلك من القبائل القاطنة فى الصحراء غرب أسيوط فى السهل المواجه لبنى عـــدى ، وان معارك دموية كانت تنشب بينهم ولا يزال الهوارة يذكرونها حتى اليوم ، وكذلك كانوا يتعرضون لهجمات اعدائهم التقليديين من قبيلة « قصاص » التى تقطن البلاد الواقعة على الضفاف الغربية من طيبـــة الى القرب من اســـنا (١٥) .

هزيمة الهوارة وزوال دولتهم على يد على بك الـــكبير :

على أن الخطر الحقيقى الذى كان يتهدد دولة الهوارة لم يكن يتمثل فى البدو أو القبائل الأخرى المجاورة لهم التى كانت تشن عليهم الغـــارات من وقت لآخر ، وانما كان يتمثل فى منافسيهم الأصليين على السلطة والحكم من المماليك . فهؤلاء وان كانوا قد اتفقوا معهم على ترك حكم الصعيد لهم فانما كان ذلك تحت ضغط ازدياد قوة الهوارة فى هذه البلاد وعدم قدرة المماليك

على مواجهتها . بيد أن ذلك لم يستمر طويلا ، اذ سرعان ما استعاد المماليك قوتهم عقب انفراد على بك الكبير بحكم مصر ، فتوالت هجماتهم على الهوارة الذين انهزموا أمامهم فى عدد من المعارك الدموية ، وقد جرح خلالها الزعيم همام الهوارى ، واضطر الى الفرار الى اسنا ، حيث توفى ودفن بالقرب من نقاده مقابل قوص (١٦) .

ولقد وصف الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى المعاصر المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين المماليك والهوارة من أجل السلطة، وما كان من أمر الحرب الفاصلة التى دارت بين قوات على بك الكبير بقيادة محمد بك أبو الذهب والهوارة ، والتى انتهت بهزيمة شيخ العرب همام وزوال دولته ، وما كان لخيانة ابن عم همام من اثر فى الهزيمة .

يقول الجبرتى « وكان من أمرهم أنه لما ذهب محمد بك أبو الذهب الى جهة قبلى لمنابذة شيخ العرب همام كما تقدم وجرى بينهما الصلح على أن يكون لهمام من حدود برديس (١٧) وتم الأمر على ذلك ورجع على بك الى مصر أرسل على بك يقول له انى امضيت ذلك بشرط أن تطرد المصريين الذين عندك ولا يبقى منهم أحدا بدائرتك فجمعهم وأخبرهم وقال لهم اذهبوا الى اسيوط واملكوها قبل كل شيء ، فان فعلتم ذلك كان لكم بها قوة ومنعة ، وانا امدكم بعد ذلك بالرجال والمال واستصوبوا رأيه وبادروا وذهبوا الى أسيوط ، وكان بها عبد الرحمن كاشف من طرف على بك الكبير وذو الفقار كاشف ، وكانوا قد حصنوا البلدة وجهاتها وبنوا كرانك والبوابة ، وركبوا عليها المدافع.. واشتغلوها وأحرقوا الباب وهجموا على البلدة ولم يكن بهم طاقة لكثرتهم وهم (جماعة صالح بك وباقى القاسمية وجماعة الخشاب وجماعة الفلاح وجماعة مناو ويحيى السكرى ... وغيرهم ومعهم كبار الهوارة وأهالى الصعيد فملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها ، وقد وردت الأخبار بذلك الى على بك فعين للسفر ابراهيم بك بلقيا ومحمد بك أبو شنب ... ومن كل وجاق جماعة وعساكر ومغاربة ... ثم سافر محمد بك أبو الذهب ورضوان بك وعدد من الأمراء والصناجق وضم اليهما ماجمعه وجلبه من العساكر المختلفة الأجناس من ولاة ودروز ومتاولة وشوام ... وذهب الجميع الى

أن وصلوا الى قرب أسيوط ...وتيقظ القوم واستعدوا لهم فالتطموا معهم وهم قليلون بالنسبة لهم ووضع الحرب واشتد الجلاد وبذلوا جهودهم فى الحرب ... وانجلت الحرب عن هزيمتهم ونصرة المصريين عليهم وذلك عند جبانة اسيوط ...واقاموا بأسيوط أياما ثم ارتحلوا الى قبلى بقصد محاربة همام والهوارة ، واجتمع كبار الهوارة مع من انضم اليهم من الأفراد المهزومين ، وراسل (محمد بك أبو الذهب) محمد بك اسماعيل ابو عبدالله وهو ابن عم همام ومناه ووعده برياسة بلاد الصعيد عوضا عن شيخ العرب همام ، حتى ركن الى قوله وصدق تمويهاته وتقاعس وتثبط عن القتال وخذل طوائفه . ولما بلغ شيخ العرب همام ما حصل ورأى فشل القوم خرج من فرشوط وبعد عنها ثلاثة أيام ، ومات مكمودا مقهورا ، ووصل محمد بك ومن معه الى فرشوط فلم يجد مانعا فملكوها ونهبوها ، واخذوا جميع ما كان بدوائر همام واقاربه واتباعه من ذخائر واموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن » (١٨) .

محمد على ومذبحة الهوارة :

على أن هزيمة الهوارة على يد على بك الكبير عام ١٧٦٩ وان كانت قد قضت على دولتهم التى زالت نهائيا منذ هذا التاريخ ، الا أنها لم تقض تماما على نفوذهم فى المراكز التى انتشروا فيها فى الصعيد ،اذ يبدوا أنهم سرعان ما جمعوا شملهم واستعادوا قوتهم بعد زوال دولة على بك الكبير . وهو ما يؤكده الرحالة « بوركهارد » Burchardt الذى زار مراكز الهوارة واختلط بهم من خلال زيارته لمصر عام ١٨١٣ ، اذ يذكر هذا الرحالة « ان سلطان الهمامية قد قضى عليه تبعا لذلك ، ولكن فيما يتعلق بقوة الهوارة ، فقد ظلت قائمة ، وانه على الرغم من ان بكوات المماليك كانوا فى حرب دائمة معهم ، فانهم لم يستطيعوا كسر شوكتهم » (١٩) ويستدل « بوركهارد » على ذلك — على سبيل المثال — بأولاد يحيى الذين ظلوا دائما محافظين على استقلالهم ، وكذلك بشيوخ القرى انفسهم الذين كانوا يتسلمون ضريبة الأرض من الفلاحين (٢٠) .

وعند تولى محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥ وجـــد الهوارة يتمتعون بالقوة فى المناطق التى بسطوا عليها نفوذهم فى الصعيد ، ومن ثم عمل على القضاء على نفوذهم فى هذه البلاد بمثل ما فعل مع المماليك . وقد قضى عدة سنوات قبـــل أن يتمكن من اخضـــاع الهوارة فى المراكز التى انتشروا فيها . والرحالة « بوركهارد » قد أوضح لنا الوسائل التىانتهجها محمد على للقضاء على نفوذ الهوارة فى الصعيد .

يقول الرحالة « بوركهارد » Burchardt لقـــد قام حكام محمد على فى الصعيد : عابدين بك وصـــالح اغا وحسين باشا ، بنهب الكثير من قراهم . ولـــكن ابنه ابراهيم باشا هو الوحيد الذى استطاع أن يثبت سلطته فى هذه الجهات عن طريق القسوة والصرامة التى اتبعها مع زعماء الهوارة بأن قتل بالسيف أو عن طريق تنفيذ حكم الاعدام فيما يقرب من الفى هوارى على اقل تقدير . كما غير شيوخ القرى بنفس الطريقة التى غير بها الزعيم الوهابى شيوخ شبه الجزيرة العربية ، فمزق وحدة القرى بينهم ، وعاقب بشدة وبدون رحمة جميع الذين كانوا يبدون أدنى معارضة او مقاومة لسلطته . وآخر قرية من قرى الهوارة دمرها ابراهيم فىالصعيد كانت أرمنت المقر الرئيسى للقصـــاص ... ففى خريف عام ١٨١٣ أنقض ابراهيم ليلا على القرية وقتل حوالى الثلاثين من الشخصيات البارزة فيها وسلب الجميع أموالهم وممتلكاتهم » (٢١) .

ويضيف الرحالة « بوركهارد » الى ذلك « أنه منذ ذلك التاريخخضع الصعيد كله لسلطانه ، واضطر الهوارة الآن الى أن يتركوا خيولهم ،ولا أحد غير شيوخ القرى يجرؤ على الاحتفاظ بها ، وتبعا لذلك تضاءلت قوة فرسانهم الرهيبة (٢٢) .

مراجع البحث

— Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III.

— Macmichael : A history of the Arabs in the Sudan Vol. I.

ـــ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

ـــ رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز طبعة القاهرة ١٩٠٥ .

ـــ لويس عوض (دكتور) : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العـــربى الحديث (المبحث الثانى) الفكر السياسى والاجتماعى .

ـــ محمد عوض محمد (دكتور) : السودان الشمالى .

ـــ مذكرات الجنرال يعقوب .

الحواشى

(1) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 152 ـ 531 - 533.

(2) Macmichael : A history of the Arabs in the Sudan, Vol. I, p. 152.

(٣) يحدثنا مكمايل Macmichael عن وجود قبيلة تعرف باسم « الهوارة الجـــلابة » تعيش فى اقليم دارفور غرب الســـودان احترفوا التجارة . ولعلهم قـــد انتقلوا الى شمال هذا الاقليم برفقة جلابة الغوز، وبعض هؤلاء الجلابة اتخذ كردفان موطنا له حيث أخذ فى تشييد القرى فى المنطقة الممتدة من بارة الى الأبيض وفى منطقة أم روابه ، بعـــد أن استولوا على الأرض من الجوامعة .

(Macmichael : Op. Cit., p. 335).

وهناك قبيلة أخرى تعرف « بالهواوير » فى اقليم دنقلة التى اشتهرت بتربية الأبل ، وقـــد كانت هجرتهم الى هذا الاقليم ــ كما يذكر الدكتور/ محمد عوض محمـــد فى كتابه الســـودان الشمالى ــ على فترات وأزمنة مختلفة ، ولعلهم قد اتخذوا الطريق المحاذى للنيل فى هجرتهم الى هـــذا الاقليم . (محمد عوض محمد ــ السودان الشمالى ص ٢٤٩) .

ويضيف مكمايكل Macmichael الى ذلك أن نشاط الهواوير امتد فى موسم المطر الى مراعى شمال كردفان ، حيث أصبحوا يجاورون الـــكبابيش من ناحية الشمال الشرقى .

(Macmichael : Op. Cit., p. 335).

(٤) المصدر السابق ص ١٥٢ .

(5) Burchardt : Travel s in Nubia, Appendix III, pp. 531 - 533.

(٦) المصدر السابق ص ٥٣١ ــ ٥٣٣ .

(٧) رفاعه الطهطاوى : تخليص الابريز : ص ١٩٦ ــ ١٩٧ .

(٨) لويس عوض (دكتور) : المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ــ البحث الثانى ــ الفكر ص ش .

(٩) نفس المصدر والصفحة .

(10) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 531 - 533.

(١١) نفس المصدر ص ٥٣١ـ٥٣٣ .

(١٢) نفس المصدر ص ٥٣١ـ٥٣٣ .

(١٣) المصدر السابق ص ٥٣١ .

(١٤) المصدر السابق ص ٥٣٣ .

لايزال الهوارة فى الصعيد يتحلون بصفة الكرم بصرف النظر عن المستوى المادى لأى واحد منهم وهم يمدون العون للفقير والمحتاج ، ويسارعون لنصرة الضعيف والمظلوم وتغلب علهيم النخوة والشهامة فى معاملاتهم ومن هنا اكتسبوا محبة الناس وتقديرهم .

(15) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, p. 532.

(16) Burchardt : Op. Cit., 532.

ويضيف « بوركهارد » الى ذلك ، وقد اتيحت له فرصة زيارة هذه المراكز التى خضعت لنفوذ الهوارة « ان شيخ العرب همام كان يملك كنزا من الأموال التى جمعها اثناء حياته . وقد حاول خصومه العثور عليه . وتحت ضغط الاضطهاد الذى تعرض له أهله اعترفوا بأنه كان قد دفن هذا الكنز فى الجبال بالقرب من بلدة هو (مركز نجع حمادى ـ قنا). ولكن لم يعثر على شىء منه على الرغم من أن الكثيرين حتى اليوم ومن بينهم فلاحون معدمون وتجار متجولون وعرافون يتجولون فى هذه المنطقة على أمل العثور على هذا الكنز » .

Burchardt : Op. Cit. p. 532.

(١٧) ففى عام ١٧٦٩ م (١١٨٣هـ) أرسل على بك الكبير محمد أبو الذهب بتجريدة الى الهوارة وعين ايوب بك سنجقا على جرجا . ولم تحدث مناوشات بين جيش محمد أبو الذهب وجيش همام الذى كان يمتد حكمه من المنيا حتى الشلال ، وتم الصلح بلا قتال على تقف حدود همام عند برديس (قرب جرجا) ويضيف الجبرتى الى ذلك أن محمد أبو الذهب قائد على بك الكبير انجب ولدا فى ذلك العام فنزل له همام عن برديس أيضا اكراما له وهبة للمولود (الجبرتى ـ ص ٣٣٥) .

وربما كان ذلك من قبيل الرشوة التى لم تفلح بدليل تجدد الحرب بين على بك والهوارة التى انتهت بهزيمتهم وزوال دولتهم .

(١٨) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراحم والأخبار جـ١ ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

(19) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, pp. 532 - 533.

(20) Burchardt : Travels in Nubia, Appendix III, p. 533.

(21) Ibid.

(22) Ibid.